مدرسة الأحزاب

ملخص
المحاضرة الثانية

المحاضرة الثانية

قال تعالى: **"وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا."**

جاءت هذه الآيات في المنتصف بعد ذكر الأوامر، وذلك بسبب الموضوع القادم وهو موضوع الغزوة، ومن المؤكد أن هذا الأمر يتطلب من الناس أن يأخذوا الدين بقوة؛ سواء كان ذلك من أجل تطبيق الأحكام مثل أحكام التبني، وأحكام الظهار، أو لأن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أو لأن يكونوا رجالاً وأقوياء وذوي إيمان قوي وميثاق، حتى يتحملوا الضغوط والشدائد والغزوات بعد ذلك. فجاء هذا الموضوع في الوسط ليبين أن الأنبياء أنفسهم قد أخذنا عليهم المواثيق، فإذا رأينا شخصاً لا يخطئ، شخصاً قد بلغ أقصى درجات الإتقان، ثم يؤمر بتأكيد وشدة، **فماذا علينا أن نفعل؟**

علينا أن نأخذ هذا الكلام على أنفسنا.

ما هو هذا الميثاق؟

دائماً ما يبدأ المفسرون عند تفسير أي موضوع بالبحث عن تفسير القرآن من القرآن نفسه، لأن أفضل تفسير للقرآن هو القرآن.

سنجد في القرآن ميثاقين تم أخذهما على الأنبياء

الميثاق الأول في سورة آل عمران: "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ".

معنى هذا الميثاق أن الله جل في علاه لم يبعث نبياً قط إلا أخذ عليه الميثاق بأنه إذا بُعث محمد وأنت حي، لتتبعنه.

هناك دليلان على توقير النبي واتباعه:

1/ النبي عليه الصلاة والسلام وجد سيدنا عمر يقرأ في كتب اليهود، وكان يقرأ ليبحث عن فائدة أو ربما يجد معلومات جديدة. فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: **"يا عمر، لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لو كان موسى بن عمران حياً، ما وسعه إلا أن يتبعني."**

2/ عيسى عليه السلام في آخر الزمان، عندما ينزل، ماذا سيفعل؟ لن ينزل بصفة الرسالة عليه السلام، لن ينزل بصفته رسولاً إلى الأرض، بل سينزل بصفة قائد يحكم المسلمين بشريعة

محمد عليه الصلاة والسلام. سينزل ليكسر الصليب ويقتل الخنزير ويحكم بالإسلام، وسيكون تابعاً تماماً لشريعة محمد عليه الصلاة والسلام. يا له من شرف، ويا له من عز وكرامة.

الميثاق الثاني: "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ".

أخذ الله ميثاقاً آخر على الأنبياء غير ميثاق اتباع محمد عليه الصلاة والسلام، وهو في زمنه وفي شريعته: أقيموا الدين بكل تفاصيله، ادخلوا في السلم كافة. إقامة الدين تعني أن تقيمه في نفسك، وتقيمه في غيرك، وتدعو إلى الله، وتتعاون على البر والتقوى، وتنصر الدين في أي موضع وفي أي مقام.

متى نتفرق في الدين؟

إذا وقعت البدع والأهوال، فهذا ما يفرقنا. البدع هي التي تفرقنا.

أهل السنة يتمسكون بالسنة ويرفضون البدع، ويظلون يجاهدون البدع ويدعون أهلها للعودة إلى السنة. فلن نجتمع إلا إذا عاد أهل البدع إلى السنة.

قال صلى الله عليه وسلم: **"ليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور".**

قال تعالى: **"لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا".**

الصادقين عن صدقهم. ابن كثير يفسرها بتفسيرين: الصادقين هنا قد يقصد بهم الأنبياء، أو الصادقين هم أتباع الأنبياء الذين صدقوا في اتباعهم. فعلى القول الأول، يسأل الله الصادقين عن صدقهم؛ أي يسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى أقوامهم.

أحد السلف كان يرتعش عندما يقرأ هذه الآية. لماذا؟ لأنه إذا كان الله سيسأل الصادقين عن صدقهم، فكيف بالكاذبين أمثالنا؟! يا الله، معنى خطير جداً.

كان الحديث عن الصادقين يشير إلى الأوصاف وحالات القلوب.

"إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ"، أنت تنصر الله، فلا تسأل عن الوعد حتى يتحقق الشرط. ربنا وعد بالفعل، ولكن وعده معلق على شرط.

غزوة الأحزاب كانت في السنة الخامسة من الهجرة، أي بعد غزوة بدر وأحد. بعد انتهاء بدر وأحد، أراد المشركون القيام بغزوة كبيرة. النبي عليه الصلاة والسلام كان قد طرد اليهود من المدينة، وهم بنو النضير. بنو النضير كانوا قد حاولوا قتل النبي عليه الصلاة والسلام، فقام بطردهم. عندما طُردوا، ذهب بعضهم إلى الشام والبعض الآخر إلى خيبر. خيبر كانت مركزاً للأغنياء من اليهود. قادة بني النضير ذهبوا إلى خيبر واستقروا هناك. اجتمعت كل محاور الشر، حيث بدأ اليهود بالتآمر. بدأوا يتحركون بين قبائل العرب لإقناعهم بالقيام بغزوة ضد

النبي عليه الصلاة والسلام، ووعدوهم بالدعم والنصرة. في المدينة، لم يتبقَ من اليهود سوى بنو قريظة. بنو النضير بدأوا بالتحرك، مثل حيي بن أخطب وابن أبي الحقيق وسلام، فذهبوا إلى قريش وأقنعوهم بالتحرك. ثم ذهبوا إلى غطفان، وهي قبيلة كبيرة وقوية، وكذلك إلى بنو أسد وبنو أسلم، وأقنعوهم جميعاً بالتجمع والقيام بغزوة. وعدوهم بالنصرة، وأيضاً وعدوهم بإقناع بني قريظة بخيانة النبي عليه الصلاة والسلام من الداخل. هكذا، تم التخطيط لهجوم كماشة: يأتون من الخارج، وبنو قريظة من الداخل، ويطبقون على الصحابة. اقتنع العرب بذلك، وبدأوا في جمع أكبر جيش شهدته جزيرة العرب، حوالي 10,000 مقاتل. كانت قريش ومعها أتباعها، وغطفان ومعها أتباعها، لأن قريش وغطفان هما أكبر حزبين في الجيش.

وصل المشركون إلى مشارف المدينة، وكان عددهم 10,000 رجل. في المقابل، عدد الصحابة في المدينة لم يتجاوز 3,000. المدينة كانت محاطة بالجبال، وليس لها مدخل إلا من الجهة الشمالية. سلمان الفارسي اقترح حفر خندق في هذا المكان لحماية المدينة، وهو خندق ضخم لا تستطيع حتى الخيول القفز من فوقه. أعجب النبي عليه الصلاة والسلام بالفكرة، وبدأ بالفعل في حفر الخندق في الجزء الشمالي، وهو مدخل المدينة.

عندما وصل المشركون، تفاجأوا بالخندق، ولم يتمكنوا من دخول المدينة. فظلوا معسكرين خارجها لفترة طويلة، يحاولون إيجاد حل لكيفية اقتحام المدينة. حاولوا الدخول فرادى من بعض المداخل، ولكن كلما حاول شخص الدخول كان الصحابة يتربصون به ويقتلونه. أدرك المشركون أنهم عاجزون عن التصرف، فقرروا البقاء معسكرين خارج المدينة حتى يجدوا حلاً.

القصة طويلة وفيها تفاصيل كثيرة، ولكن باختصار، المشركون قرروا في أحد الأيام الهجوم على المدينة بالتنسيق مع بني قريظة الذين كانوا قد اتفقوا على خيانة النبي عليه الصلاة والسلام في نفس اليوم. كان الخطة أن يهجم بنو قريظة من داخل المدينة والمشركون من خارجها، ليكون هذا نهاية المسلمين.

لكن حصل ما لم يكن في حسبانهم؛ صحابي يُدعى نعيم بن مسعود، أسلم حديثاً ولم يكن أحد يعلم بإسلامه. ذهب نعيم إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأخبره بأنه أسلم حديثاً، وطلب منه توجيهاته قائلاً: **"أمرني بما تريد، أخبرني كيف أستطيع مساعدتك." فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام: "خذل عنا ما استطعت"**، أي استخدم ذكاءك وافعل ما تستطيع.

نعيم بن مسعود كانت له علاقات جيدة مع كل من يهود بني قريظة وقريش وغطفان، وكان الجميع يثقون به لأنه كان كافراً سابقاً. فذهب نعيم بخطة ذكية لإيقاع الفتنة بينهم. قال لقريش إن بني قريظة يخططون للغدر بهم، وقال لبني قريظة إن قريش سيغدرون بهم. وبهذه الطريقة، استطاع أن يشعل الشكوك والفرقة بين الجانبين.

وهنا القصة تروي آخر مشهد: **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا".**

الله أرسل الرياح فطيرت الخيام، وأرسل الملائكة فأدخلت الرعب في قلوبهم وزلزلت نفوسهم. كانوا يرون الرياح تطير الخيام، وفي الوقت نفسه لم يعرفوا ما هو سبب الرعب الذي نزل عليهم، فقرروا الانسحاب. تخيل، 10,000 شخص يخافون ولا يعلمون مما يخافون.

"كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا". هذا هو الهدف من كل ما حدث. الغاية كانت أن يمتد الأمر حتى تعبتُم وخفتُم، وكان الجو شديد البرودة والجوع قد بلغ بكم إلى حد ربط الحجارة على بطونكم من شدة الجوع. النبي عليه الصلاة والسلام نفسه ربط الحجارة على بطنه بسبب شدة الأمر. وأكلتم أوراق الشجر. كل هذا لماذا؟ لكي تصلوا إلى هذه النقطة.

كل ما يحدث في حياتك هو كغزوة أحزاب صغيرة. بمعنى، لماذا أتعرض للظلم، مع أن الله قادر على رفعه عني الآن؟ هذه هي غزوة أحزاب صغيرة.

قال تعالى: **"إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ".**

سيأتي التلفزيون بمسلسلات في رمضان، وسيكون هناك إغراء لمشاهدتها. قد تكون هناك أغاني جديدة تصدر، وأنا كنت أستمع إليها. قد يثير ابني غضبي، فماذا سأفعل؟ كل هذه أسئلة واختبارات طويلة علينا أن نجيب عنها.

"وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ".

هناك من تشتد رهبتهم لدرجة أنهم لا يستطيعون التحكم في بصرهم. تعرفون عندما يشعر الإنسان بالتوتر الشديد من الخوف، فلا يعرف أين يوجه نظره، ويبدو كأن عينيه تتحركان بشكل عشوائي بسبب الهلع، منتظراً الضربة من أي اتجاه.

"وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ".

تعبير عن شدة الخوف؛ عندما ينبض القلب بقوة شديدة لدرجة أنك تشعر بدقاته في حنجرتك.

"وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا".

كل واحد منهم كان له تفكير مختلف. خلال هذه الغزوة، كانت هناك ظنون مختلفة بين الناس. من بينهم من قال: **"قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ "**، وهناك من قال: **"مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا"**. وبين هذين الطرفين كانت هناك مستويات متفاوتة من الظنون؛ منهم من كان حسن الظن بالله، ومنهم من كان سيئ الظن، ومنهم من كان في الوسط، ومنهم من شك، أو كفر، أو ثبت، أو ازداد إيمانه.

"هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ". هذا هو المطلوب.

"وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا".

عندما يحدث الزلزال، فإن الضعيف سيسقط، ولكن القوي لن يصيبه شيء.

"وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا".

"مَرَضٌ": هنا تحمل عدة معانٍ؛ منها مرض الشك، ومرض الكفر.

(وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا).

المقصود هنا أنهم يقولون: "لا مقام لكم مع النبي صلى الله عليه وسلم، ما الذي تفعلونه؟ نحن خاسرون ضائعون". ولكن لاحظ الكلمة التي استخدموها، قالوا: "يا أهل يثرب"، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم سمّاها المدينة عندما قدم إليها، وكأنهم يقولون: انتهى الإسلام ونعود إلى ما كان عليه الأمر في يثرب.

" وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا".

كانوا يتحججون بأن بيوتهم معرضة للخطر وأن أهلهم في خطر، ويقولون إنهم يخشون على نسائهم وذريتهم من الاعتداء. لكن في الحقيقة، لم يكن هناك أي خطر حقيقي على بيوتهم؛ إنما كانت رغبتهم في الفرار فقط. وهذا يجعلنا نعرض أنفسنا على هذه الآية، ونسأل: كم مرة تبررنا واعتذرنا عن الطاعات بحجج واهية؟

"وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا".

لو دخل المشركون المدينة، هؤلاء المنافقون كانوا سيتخلون عن كل شيء وينحازون للكفر بسرعة. وهذا هو ما تشير إليه الآية، أن المقصود بـ"الذين في قلوبهم مرض" هم ضعاف الإيمان.

"وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا".

هؤلاء الأشخاص قد وعدوا الله بعد غزوة بدر أو غزوة أحد بأنهم لن يفروا، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: **"لو جاءت غزوة أخرى، لن نفر، نحن معك"**. ولكن كعادة المنافقين، يعدون ويخلفون. تخيل ماذا يحدث لمن يعد الله مرارًا ويخلف. الله عاقبهم بنفاق في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

" قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ".

الهروب لا يؤخر الموت، والمواجهة لا تجلبه قبل أوانه. الموت له وقت محدد، سيأتي سواء كنت في بيتك أو في المعركة.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.